

أستطيع صبراً على هذه الحياة. قلت: وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة، ولكن ما الذي نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب. قال: أي قضاء؟ ألم يأن لك أن تفصحي، ألم يأن لي أن أفهم، ألم يأن لهذه الظلمة أن تنجاب؟ قلت: أحرص أنت على ذلك؟ إنني لأخشى إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر في وجه صاحبه. قال، وقد غلبه العنف، فارتفع صوته قليلاً واضطربت يده اضطراباً خفيفاً: بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة. قلت: فأذن لي بالجلوس، ولم أنتظر إذنه، وإنما جلست على هذا الكرسي الذي كنت أعتمد عليه، وألقيت عليه قصتي في صوت هادئ مطرد لا يبيل الدمع ولا يظهر فيه الحزن، ولا ينم عن قليل أو كثير من الاضطراب، إنما ألقيت عليه قصتي كأني أتحدث عن شخص غريب إلى شخص غريب. وما أدري أ طال الوقت الذي ألقيت فيه قصتي أم قصر، ولكني أعلم أنني سمعتني أقول: أفهمت الآن؟ أترى إلى هذا الضوء الذي يغمرنا؟ أستطيع أن تنظر إلي؟! وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة، ولكني سمعته كأنما كان يتحدث إليّ من مكان بعيد جداً، سمعته يقول: نعم! أستطيع أن أنظر إليك، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك، وأنت أطيعين أن تنظري إلي؟ أما زلت تضميرين الانتقام؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسها وذاب قلبها، فهو يسيل من عينيها دموعاً، ثم أسمعته بعد وقت لا أدري أكان طويلاً أم قصيراً يقول لي: لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء؛ فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه، أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذي أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التي خرجنا منها؟ إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدي في هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه. إن العبء لأثقل من أن تحمله وحده، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدي، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب! غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم في نوم بريء من الأحلام. ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغني فينتزعني انتزاعاً من هذا الصمت العميق، فأثب وجلة مذعورة، ويثب هو وجلاً مذعوراً، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء، فأما أنا فتنحدر على خدي دمعتان حارتان. وأما هو فيقول وقد اعتمد بيديه على المائدة، دعاء الكروان! أترينه كان يرجع صوته هذا الترجيع حين صرعت هنادي في ذلك الفضاء العريض؟!

القاهرة، سبتمبر ١٩٣٤